الافعال في اللغة العربية (١)

من قابل كتب الصرف والنحو في اللغة العربية على كثرتها بين قديمة وحديثة بمثلها في اللغات الافرنجية يجد هناك فروقاً كثيرة اهمها ان الافرنج طبّقوا احكام لغاتهم وقواعدها على ما وصلوا اليهِ من الحقائق في علم اللغة او فلسفتها وهو العلم الذي يبحث عن تاريخ الالفاظ وتنوعها ودلالتها مع ما طرأ عليها من التغيُّر كما قال المرحوم جرجي زيدان في كتابهِ فلسفة اللغة بحيث صارت احكام لغاتهم وقواعدها لا صناعة فقط كما هي عندنا بل علماً ايضاً. ولهم في ذلك غرضان الاول تسهيل تلك الاحكام على الطالب وتقريب منالها منهُ لان الاحكام المعقولة اسهل فهماً واقرب تناولاً من الاحكام غير المعقولة . الثاني جعل الفائدة من تلك الاحكام اتمّ لكل موضوع من موضوعات التعليم كالقراءة والكتابة والحساب والصرف والنحو وغير ذلك فائدتان الاولى ذاتية اي يتعلمهُ الطالب لانهُ سيحتاج اليهِ في الحياة . والثانية عرضية اي ان درس ذلك الموضوع يساعد على توسيع ادراك الطالب وترويض قواهُ العقلية وتعويدهِ التفكير والملاحظة والاستنتاج . ولا تتم هاتان الفائدتان الاَّ اذا كانت حقائق كل موضوع معقولة صحيحة تربط فيها الاسباب بنتائجها ويرجع في النتائج الى اسبابها مما خلت منهُ كتبنا الصرفية والنحوية . بلى قد حاول الصرفيون والنحويون ان يعللوا احكامهم ويربطوها باسبابها الاَّ ان اكثر الاسباب التي ذكروها واهية حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوي . والطالب الذي يتعلم على هذا الاسلوب السطحي الشاق ويقتنع بتلك الاسباب والعلل الواهية ويتعود ان يتلقاها بدون نكير ولا تفكير تظلم مع الايام بصيرتهُ ويأفن رأيهُ وتضعف فيهِ اداة الحكم بحيث يسهل استدراجهُ الى تصديق كل خرافة واعتقاد كل سخافة فضلاً عما يستغرقهُ الدرس على ذلك الاسلوب من الوقت الطويل عبثاً. فما احرانا والحالة هذه ان نتدارك الامر فنجري على الطريقة الافرنجية في بناء احكام لغتنا وقواعدها على مبادىء علمية جديدة تسهيلاً على الطالب واقتصاداً في وقتهِ وترويضاً لعقلهِ. وهذا ما احاول بسطهُ لديكم راجياً ان تتغفروا خروجي عن المألوف المتعارف وساقتصر على الكلام عن الفعل في اللغة

(١) المحاضرة الثالثة التي القاها حضرة صاحب الامضاء في الجامعة المصرية في فبراير الماضي

العربية لان البحث في الفعل اهم الابحاث الصرفية في كل لغة

تعرفون ان الفعل لا يمكن ان يحدث من تلقاء ذاته بل لا بد لهُ من فاعل يفعلهُ فالجلوس لا بد لهُ من جالس والخروج لا بد لهُ من خارج وكذلك لا بد لهُ من وقت فاذا وجد الفاعل ولم يكن وقت او وجد الوقت ولم يكن فاعل فلا يقع فعل فاذا اردنا تصريف الفعل احتجنا الى ثلاثة اشياء صيغة للفعل وعلامة للفاعل وعلامة للزمان

الصيغة

صيغة الفعل مأخوذة من المصدر ومعنى ذلك ان العرب كانوا يصرفون المصدر مع الضمائر ولا تزال آثار ذلك في اللغة الى اليوم اذ لا تزال تستعمل المصدر امراً فتقول صبراً مهلاً رفقاً ولم يكن في الاصل فرق بين صور المصدر وصيغ الفعل ولا تزال بعض الافعال تشبه المصدر مثل طلب والطلب من الصحيح وجرّ والجر من المضاعف . وكانت صور المصدر قليلة على عدد صيغ الفعل فكان المصدر من الصحيح يجيء على وزن طَرْق باسكان الاول والآخر لان اول ما وضع من اسماء الاحداث كان البعض منهُ محكيًا عن الاصوات المسموعة من الحيوان او الجماد فاذا حاكينا الاصوات الخارجية في ذي ثلاثة احرف جئنا به ساكن الاول والآخر . ولا يزال المصدر في السريانية كذلك على حكايته الاصلية ثم حركنا الحرف الاول فيهِ في الماضي تفادياً من خشبية اللفظ وتعسر الابتداء بالساكن كما قال جبر ضومط في كتابهِ «خواطر في اللغة» وكانت حركتهُ الفتح لان الفتح اخف الحركات ورددناهُ الى السكون في المضارع على ما كان عليهِ في الاصل لانتفاء الابتداء بالساكن لوقوع حرف المضارعة قبلهُ . وكان المصدر من الناقص على وزن رمى واصل حكايتهِ من باب حكاية الصحيح اي الاصل فيهِ ان يكون ساكن الاول كما هو في اللغة السريانية ومن المضاعف على وزن جرّ . وهو اما ان تقصد بهِ حكاية الصوت نحو فحّ الافعى وأنّ المريض وخر الماء وشق الثوب وجرّ الحبل ومص الشراب وشم الطيب . او ترامى فيهِ حكاية الحركة مثل هب النائم وحلّ العقدة وشبت النار او حكاية صفة الشيء بما توهم في متاطع الحروف من الصفات وما في اقترانها من الهيئات نحو رث الثوب وكلّ السيف وخفّ الحمل وجفّ الغصن . ومن ذلك في لغة الاطفال ذخّ للشيء الحسن وكخ للشيء القبيح لما توهموا في اقتران الدال والخاء من الحسن واقتران

الكاف والطاء من القبح . وجاء من الاجوف على وزن قام واكثر ما تقصد به حكاية الحركة نحو سال الماء وذاب الجامد وماع السائل وفاح الطيب وحام الطائر وغاص الحوت لما بين المد فيه وحركة المحكي من المطابقة . وعلى ذلك فصور المصدر الاصلية اربع على عدد صيغ الفعل ثم مع كرور الزمان وتلاعب اللسان خرج المصدر عن الحكاية الاصلية وتفرع الى صور عديدة كثيرة الاشكال مختلفة الحركات بين مشبعة وقصيرة مثل كتابة ورجوع وعلانية وندامة وعرفان وجولان ورحيل وقيام الى نحو اثنين واربعين شكلا كما هو مذكور في كتب الصرف المطولة . ولذلك تكون الكتابة مثلاً صورة جديدة اصلها كتب والجلوس صورة جديدة عن جلس . ويظهر ان هذا التفرع نشأ بعد ان تولدت في اللغة صيغ الفعل والاَّ كان يجب ان تكون صيغ الفعل على قدر صيغ المصدر الجديدة . وقد لزمنا في التصريف حكاية المصدر الاصلية لخفتها وحسن وقعها والاَّ فلو صرفنا اشكال المصدر على اختلاف صورها وكثرة مقاطعها مع الضمائر لجاءت ثقيلة طويلة الاذيال . اذاً ليست صيغ الفعل الاَّ صور المصدر القديمة . واذا قلنا ان المصدر هو اصل الفعل عنينا بذلك صورهُ القديمة لا صورهُ الجديدة التي تفرعت عنها وهذه الصور القديمة لا تزال محفوظة في صيغ الفعل كما تحفظ الاحافير في طبقات الارض مما قد يوهم ان الفعل هو الاصل وان المصدر هو الفرع

الفاعل

المهم في بيان الفاعل معرفة جنسهِ اي هل هو مذكر او مؤنث وعددهُ اي هل هو مفرد او مثنى او جمع وشخصهِ اي هل هو متكلم او مخاطب او غائب . وقد استعملنا الضمير المتصل لبيان ذلك في الماضي والمضارع والامر فمن اين اتينا بهذه الضمائر . لم يكن في الاصل الاَّ ضمائر منفصلة كما نرى في اللغات الافرنجية ولا بد انهُ مرَّ زمان طويل على العرب كانوا يستعملون فيهِ الضمائر المنفصلة في التصريف فكانوا يقولون في تصريف الماضي ضربَ هو ضربَ هما ضربَ هم ضرب هي ضرب هما ضرب هنَّ الخ. وفي تصريف المضارع هو ضرب وانا ضرب ونحن ضرب وانت ضرب الخ وفي تصريف الامر اضرب انت اضرب انتما اضرب انتم الخ . ثم مع كرور الزمان وتلاعب اللسان تحتنا منها الضمائر المتصلة وسنعود الى هذا البحث عند كلامنا عن صيغ الفعل الماضي والمضارع والامر

الزمان

الزمان ثلاثة انواع ماض وحاضر ومستقبل . وفي اللغة العربية ثلاث صيغ للفعل صيغة الماضي وهي موضوعة للماضي وصيغة المضارع وهي مشتركة بين الحال والاستقبال وصيغة الامر وهي مختصة بالاستقبال فاهي علامة الزمان في هذه الصيغ وكيف تتميز الواحدة عن الاخرى . لا بد انهُ مر زمان طويل على اللغة كانوا يستعملون فيهِ الصيغة الواحدة بدلاً من الاخرى احياناً ونرى مثل ذلك في اللغة العبرانية فانهم مع وجود صيغ الماضي والمضارع والامر في لغتهم قد يستعملون الصيغة الواحدة بدلاً من الاخرى فهم يقولون مثلاً اذهب وقلت لهذا الشعب كما هو وارد في بعض آيات الكتاب بل نرى آثار ذلك في اللغة العربية الى اليوم فاننا قد نستعمل الماضي للحاضر نحو

فللهِ يومٌ انت فيهِ مسلّمٌ وهبت لهُ جرم الزمان الذي خلا

اي اهب ونحو كما يقول الشاعر اي كما قال وكبعتك الدار في الانشاء الايقاعي اي ابيعك . وقد نستعمل الماضي للمستقبل في الانشاء الطلبي نحو رحمك الله اي يرحمك وفي الشرط نحو ان قمت قمت اي ان تقم أقم . ونستعمل المضارع للماضي مع لم في النفي المنقطع نحو لم اذهب ومع لما في النفي المتصل بالحاضر نحو لما اذهب وللمستقبل القريب مع السين في حالة الاثبات نحو ساذهب ومع لا في حالة النفي نحو لا اذهب وللمستقبل البعيد مع سوف في حالة الاثبات نحو سوف اذهب ومع لن في النفي نحو لن اذهب . ونستعمل الماضي والمضارع للازمنة كلها نحو انما يعمر مساجد الله من آمن بالله اي من يؤمن دائماً . والله يحيي ويميت اي يحيي ويميت دائماً . الاّ ان استعمال الصيغة الواحدة لغير الزمان الموضوعة لهُ محصور في مواطن مخصوصة لا يتعداها فصار استعمالها كذلك قياساً وفي ما عدا ذلك لا يجوز استعمال الصيغة الواحدة الاّ في ما وضعت لهُ . فكيف تدل الصيغة على الزمان

اذا اعتبرنا الضمائر المتصلة علامات للفاعل فليس هناك الاّ صيغة الفعل وعلامة للفاعل واما الزمان فليس لهُ علامة . وقد اختلف الصرفيون في دلالة الفعل على الزمان فمنهم من قال ان الفعل يدل على الحدث والزمان معاً بالمطابقة كدلالة الانسان على الحيوان الناطق فانهُ تمام المعنى الموضوع لهُ اللفظ وهذا مذهب الجمهور . وقال آخرون كالسيد ان دلالة الفعل على الحدث والزمان تضمن كدلالة

الانسان على الحيوان فقط او الناطق فقط لدخول الجزء ضمن المعنى الموضوع لهُ اللفظ وقد اختار ذلك الصبّان . وقال الشاطبي ان الفعل يدل على الحدث بالمادة وعلى الزمان بالصيغة نحو ضرب فالضاد والراء والباء تدل على الحدث في المصدر والفعل واسم الفاعل وسائر المشتقات من هذه المادة وبناؤها على وزن فعل يدل على الزمان. بل قالوا ان الفعل يدل على الفاعل والمكان التزاماً كدلالة الانسان على الضاحك فالضاحك خارج عن الانسان ليس كلاً لهُ ولا بعضاً منهُ ولكنهُ لازم للمعنى الموضوع لهُ اللفظ. هذا ما يقولهُ الصرفيون ولكن اذا كان الفعل يدل على الحدث والزمان بالمطابقة او التضمن وعلى الفاعل والمكان بالالتزام كما يقولون فلماذا لا يكون للمصدر وسائر المشتقات كل هذه الدلالات على حين نرى ان البصريين جردوا المصدر من الدلالة على غير الحدث في احتجاجهم على الكوفيين اذ قالوا ان مدلول المصدر واحد وهو الحدث ومدلول الفعل متعدّد لانهُ يدل على الحدث والزمان بالمطابقة وعلى الفاعل بالالتزام والواحد قبل المتعدد . واذا كانت الصيغة تدل على الزمان كما قال الشاطبي فكيف نعرف الزمان اذا تساوت صورة الماضي والمضارع مثل مَسَّ يَمَسُّ وخاف يخاف فلا بدّ اذاً ان تكون هناك قرينة اخرى على الزمان. كان يجب ان تكون علامة خصوصية للزمان كما ان هناك علامة للفاعل على ما نرى في بعض الافعال في اللغة الانكليزية مثل he walk-ed فلفظة he علامة للفاعل ولفظة walk صيغة الفعل ولفظة ed علامة للزمان ولكن العرب استخدموا علامة الفاعل للدلالة على الفاعل بلفظها وعلى الزمان بموضعها فاذا ارادوا المضيّ وضعوا علامة الفاعل في الآخر فكانت صيغة الماضي نحو ضربتُ وضربنا. واذا ارادوا الحاضر وضعوا علامة الفاعل في الاول فكانت صيغة المضارع نحو اضرب ونضرب. واذا ارادوا المستقبل استخدموا صورة الحاضر مع قرائن اخرى كالسين وسوف وغيرهما كما يفعل الانكليز فانهُ اذا اراد الاشارة الى فعل فعلهُ في الزمان الماضي فانهُ يشير اولاً الى الفعل ثم الى نفسهِ واذا اراد الاشارة الى فعل يفعلهُ في الحاضر او المستقبل اشار اولاً الى نفسهِ ثم الى الفعل . فالزمان اذاً ليس لهُ علامة خصوصية كالفاعل ولكن لهُ موضع . وعلامة الفاعل تستخدم لامرين للدلالة على الفاعل بلفظها وعلى الزمان بموضعها. ولنشرع الآن في الكلام على كل صيغة بمفردها (ستأتي البقية) خليل السكاكيني